الطاحونة

أحمد الرضواني

1 ـ الدم ، والصنابير

فتحت الصنبور ، فسالت منه الدماء ، لم اصدق عينى اول الامر ، ومنذ تحققت من ذلك لم ينقطع اندفاع هذا السائل الاحمر اللزج الحار من صنابير بيتى . لاشك ان الامر عام ، بل لا بد ان يكون كذلك ، لان الدماء عندنا سلعة رخيصة ، الدم عندنا كالماء ، يسيلان بنفس السهولة ونفس الكمية ، أردت أن أسأل الجيران ، الا انى خفت ، ربما انفضحت حالتى ، فتلحق بى تهمة الحمق ، ألجمت لسانى طويلا ، لكن الدماء لا تنقطع ، تعودت على طعمها شرابا وطعاما . اصبح من اللازم ان اهيم فى شوارع المدينة ، تلصص الاخبار ، وأحدق بشراهة وحذر فى وجوه الناس ، صرت أعشقها حتى خيل الى انهم مثلى تقريبا . هم يبحثون بصمت واصرار عن اشياء صنعوها ، وأنا لم اصنع بعد ، لكنى أبحث باصرار عن لغز .

تجرأت مرة ، فدفعت بالسؤال الميت الى احد اصدقائى الذين يشبهوننى فى كل شىء ، فلمعت عيناه بالفرحة :

ـ عجبا ، لقد وقع لى نفس الشىء تماما ، وخوفا أخفيت عنك القضية ولما سألنا معا ، صديقا آخر ، برقت عيناه ، ووجدناه هو الآخر يسكته الخوف . قلت للاول بتهكم :

ـ بين الخوف والصمت ، زواج من اى نوع ؟ أجاب ضاحكا :

ـ نوع الصناعة التقليدية .

تفرقنا نحن الثلاثة ، وصار عملنا بكل احتراس ، ان نتساءل ، وعيوننا تحدق فى وجوه الناس ، يامن شربتم الدماء ، أكلتم الدماء ، لكنكم أحبتى ، تغلفون عقلكم ، وتحرمون نفسكم حلاوة السؤال ؟ دعوا قلوبكم تخف من مرارة الفزع . دعوا عقولكم ترتاح من قيود خوفها السميك فليس فى السؤال ذنب . الذنب فى قبولكم سكينة مزيفة . الذنب فى الحقيقة المزيفة .

اخيرا ثبت لدينا ـ نحن الثلاثة بما لايدع مجالا للشك ان صنابير

المدينة كلها تسيل دما . ولكن هناك صمت مصنوع صنعا تقليديا، مضروب على القضية ، حتى لا يعرف الناس :

ـ من اين تاتى الدماء ؟

ـ من اين تاتى الدماء ؟!

2 ـ الشارع والليل

من يكون هذا القادم من بعيد ؟ شبح يلتصق بجذوع الشجر ، ولعلها اشباح كثيرة ، الاضواء فى هذا الشارع قائمة تجاهد الظلمة . من يكون هذا الشبح الزاحف فى هدوء ، كأنه ينتظر فريسة معلومة ؟ اذا كان لصا يهون الامر ، فاللص لا يقتل ولا يضر الا الجهال او المتعجرفين او الذين يستحقون القتل.

بينى وبينه مسافة ، تمتلىء بالظلام والسكوت والخوف. هذه الكائنات لا تفترق . تنحنح الشبح كأنما هو يربط نفسه بتلك الكائنات. تمنيت أن يكون لصا وألا يكون أحدا آخر ، فهو على اية حال افضل عندى من السائل الذى يمد يده . استنتجت فكرة ما بسرعة ، ثم ابتسمت منها: «اذا رأيت بلدا يكثر فيه القتلة واللصوص ، والمساجين فهو بلد لا بد ان أهله رجال شجعان فقراء ، لكنهم جهال ينقصهم الوعى» . آه ، ما اقدرنى على الاستنتاج حتى فى مواقف الخوف !

اذا كان لصا يهون الامر . كل ما اتمناه الا يكون احدا آخر ، لم أتمن ذلك ، لاخففت عن نفسى ، بل لخوفى من رجل معين اعرفه. شعرت به يترصدنى كظلى ليلا ونهارا ، منذ بدأت أتساءل عن مصدر الدماء . ومع ذلك فليس بينى وبينه اى حساب خاص .

ـ قف هناك ، وهجم على من وراء شجرة ، كان صحبته رجلان من جنسه .

ـ اخيرا وجدتى هذا المترصد الذى كنت اخاف ان اجده .

3 ـ أغنية ممنوعة

يامن هو باز . . فى لقفاز
يا من هو فروج ع الكندرا ، ونشر جناحو
يا من هو تليس اعطا ظهرو للتغراز
يامن هو ديب فى لغياب كثر صياحو
عمرنى ما ريت لغزال تمشى بالمهماز
وفرسانه الخيل عادوا سراحو
عمرنى ما ريت النخلا تعطى حب الغاز
بعد التمر وتبلاحو
اليام ، أليام ، يا متى مالكى عوجا
واش من اسباب عرجت لى بيه

تارة تسقيني حليب
تارة تسقيني حدجا كيمولى هيه
اصدق حتى اعيا ، وقالوا راها فيه ، تبقى فيه
فين غادى بيا خويا ، وفين غادى بيا ؟
فين غادى بيا خويا ، وفين غادى بيا ؟

4 ـ من هنا جئت

أخذونى ، وفتشوا بيتى ، أحسست بلذة وهم يفتحون الصنبور ، غسلوا اياديهم من دمائه وضحكوا وجعلوا يفتشون من جديد عن شىء تخيلوا وجوده ، حتى ملوا ، ثم أخذوا محله كتبا قديمة ، وبعض الاوراق الخاصة ، وصورا لاشخاص اعرفهم . سألت احدهم :

ـ لماذا اخذتم كتبى ؟

ـ لنثبت أنك تسأل ، وتعلم الناس كيف يسألون .

كنت اعتقد ان كل ما اخاف عليه واخفيه برعاية ، هو الدماء التى تجرى فى صنابير بيتى . لكنى كنت غبيا ، فكيف للدماء ان تجرى بدون سبب؟ كيف للعجين ان يتخمر بلا خميرة ، . كتمت السؤال فى نفسى، حتى لا يضيفوه الى القائمة . نظرت الى احدهم ، وكان رأسى يدور وأكاد اقىء ، فسمعته يقول :

ـ لماذا فتحت الصنبور ؟ غنيت لـ ـمتهكما :

ـ عطشان والماء يجرى قدامى ! هل تراه ينتظر منى ان انتحر عطشا ؟

ـ قلت لك لا تسأل، أجب فورا .

ـ ان لم افتحه سأموت ، ثم ان من حقى ان افتحه ، فأنا لا اشرب الماء بلا ثمن .

ـ دع الحق للمحكمة ، اريد جوابا آخر . طبعا سكتت ، وكيف اجيب عن شىء لا افهمه ، او تريدنى ان اجن .

كان رأسى يدور ، ولم تعد اذناى تقوى على السمع ، ولا عقلى على الفهم . أحسست رجلى تتحركان . عند القاضى سألنى نفس الاسئلة :

ـ لماذا فتحت الصنبور ؟

ـ لاننى لا اريد ان اموت !

ولماذا لا تنتحر ؟ أجبته بهزل :

ـ بل ها انذا انتحر ، لكن بشكل آخر ، أتممت فى نفسى «أيها الاغبياء .

وساقونى مجرورا الى ..

الطاحونة

كانت تدور ، تدور بسرعة خارقة ،حتى أننى لم أسمع ادنى صخب ، لم يكن معى الا بعض الذين تساءلوا مثلى ، فهنا لا يوجد سواهم ، ربطنى

بهم السؤال من قبل ، والآن نلتقي في جـوف الطاحونـة التي توحد بيـن دمائنا ، فتجعلنا واحدا .

كنا نضحك جميعا ، ونحن نتحرك بسهولة ويسر ، يساعـد بعضنـا بعضا على الحركة ، استمر الحال كذلك حتى بعد اختلاطنا . شيء واحـد يستحق الذكر ، لقد أصبحنا بلا عظم ، كان العظم يعوق حركتنا ، ويبطيء من تقدمنا ، فلما فصلوه عنا ، لم يبق الا الدماء .

سيعود كل منا دما يسيل من صنبور بيته وبيوت الناس ، وسيحيـا السؤال ، من أين تاتي الدماء ؟ لكننا هذه المرة ، ونحن في جوف الطاحونة تمكنا من معرفة الجواب . . فليس الا من هنا تنبع الدماء . .

احمد الرضواني